الصباح الإسلامية
09
العدد 2413 - السنة الثامنة
الأحد 4 جمادى الآخرة 1437 - الموافق 13 مارس 2016
Sunday 13 March 2016 - No.2413 - 8th Year
إعداد : ياسر السيد

حذر منها رب العزة ورسوله الكريم

حب الدنيا رأس كل خطيئة

هي أول شهوة حذّر منها النبي صلى الله عليه وسلم أمته حيث قال صلى الله عليه وسلم : « إن الدنيا خضرة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا ... » .

ولأن الرزق مضمون ، لذا لم يخش علينا النبي صلى الله عليه وسلم من الفقر بل خاف علينا الغنى ، فالمسم صلى الله عليه وسلم -وهل يحتاج مثله إلى قسم؟!- : « والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم : فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » .

والحق أن شهوة حب المال عمت غالب الخلق حتى فتنوا بالدنيا وزهرتها ، وصارت غاية قصدهم : لها يطلبون ، وبها يرضون ، ومن اجلها يغضبون ، وبسببها يوالون ، وعليها يعادون ، وكم قطعت أرحام في سبيلها ، وسُفكت دماء بسببها ، ووقعت فواحش من أجلها ، ونزلت القطيعة وحلت البغضاء ، وفرّق بين الأخ وأخيه ، وتقاتل الأب مع ابنه ، وتعادى الأصحاب والخلان ، والسبب : دنيا.

وهذا ما استشرفه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، حتى لم يؤثر في بصيرته الفرح بالغنيمة والانشغال بالنصر ، فقد أورد ابن حجر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتي بمال من المشرق يُقال له نفل كسرى ، فأمر به فصُبّ وغطي ، ثم دعا الناس فاجتمعوا ، ثم أمر به فكشف عنه ، فإذا حُلي كثير وجوهر ومتاع ، فبكى عمر ، وحمد الله عز وجل ، فقالوا له : ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟! هذه غنائم غنمها الله لنا ونزعها من أهلها ، فقال : « ما فتح من هذا على قوم إلا سفكوا دماءهم واستحلوا حرمتهم » .

ولماذا لا يبكي عمر ، وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم هذا المصير في نظره لحالنا المؤلم من وراء ستار رقيق ، فقال : « كيف أنتم إذا فتحت عليكم خزائن فارس والروم، أي قوم أنتم؟ » . قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : نقول كما أمرنا الله. قال : « او غير ذلك؟ تتنافسون ، ثم تتحاسدون ، ثم تتدابرون » .

ولأنه رأى ما لم ير ، وأحس بما ينتظرنا ، وخاف من سوء عاقبتنا ، فقد حذّر النبي صلى الله عليه وسلم من أناس يبيعون الدين بعرض الدنيا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم : يُصبح الرجل مؤمنا ويُمسي كافرا ، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا ، يبيع دينه بعرض من الدنيا » .

وهو ما أخاف عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة حتى بكى ، فقال : يا أبا فلان!! اتخشى علي، قال : كيف حبك للدرهم؟! قال : لا أحبه قال : « لا تخف فإن الله سيعينك » .

ومن آثارها المدمّرة عدم جدوى نصيحة عشاقها ، وهو ما سبق ورصده أبو يحيى مالك بن دينار حين قال : « إن البدن إذا سقم لم ينجع فيه طعام ولا شراب ، ولا نوم ولا راحة ، وكذلك القلب إذا علقه حب الدنيا لم تنجع فيه الموعظة » .

ومن آثارها المؤلمة والمشاهدة بوضوح والمجرّبة مرارا وتكرارا أنك « بقدر ما تحزن للدنيا يخرج همّ الآخرة من قلبك ، وبقدر ما تحزن للآخرة كذلك يخرج همّ الدنيا من قلبك » .

الفضيحة!!

ومن علامات حب الدنيا : بيع الآخرة بالاغتراف من المال دون مبالاة بمصدره : حلال أم حرام ، وقد نبّأنا النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الزمان ، ولعله زماننا الذي نعيش فيه فقال : « ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء مما أخذ المال؟ أمن حلال أم من حرام؟ » .

وجزم في قول آخر أن هذا الداء داء قديم موغل في القدم فقال : « إن هذا الدينار والدرهم أهلكا من كان قبلكم وهما مهلكاكم » .

وإذا كان لا بد من ورود كلمة الحرص في قاموس حياتك ، فليكن الحرص النافع لا الحرص الفاجع كما في نصيحة العابد الزاهد عبد الواحد بن زيد الذي قال :

« الحرص حرصان : حرص فاجع ، وحرص نافع ، فأما النافع : فحرص المرء على طاعة الله ، وأما الحرص الفاجع : فحرص المرء على الدنيا » .

ومن علامات حب الدنيا : الحسد الذي يحس صاحبه بالألم إذا فاته من حظوظ الدنيا شيء كالمال والجاه والمنصب والسلطان ، فلا يرضى عن حاله أبدا ، بل يعتبر نفسه دائما سيء الحظ صريع الأقدار لأنه لم ينل ما نال غيره ، مع أنه لا يحس بنفس الشعور إذا رأى من هو خير منه دينا وأفضل منه خلقا ، فلا يغار إلا لدنيا ، ولا يتنافس أبدا في دين ، ليكون ممن عيّرهم ابن المبارك بقوله :

أرى أناسا بأدنى الدين قد قنعوا ×× ولا أراهم رضوا في العيش بالدون

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما ×× استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

والحسد كما علّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخدش الإيمان كما قال صلى الله عليه وسلم : « ولا يجتمعان في قلب عبد : الإيمان والحسد » . فيا أخي الحاسد :

متى تُمسي وتُصبح مستريحا ×× وأنت الدهر لا ترضى بحال

وقد يجري قليل المال مجرى ×× كثير المال في سد الخلال

إذا كان القليل يسدّ فقري ×× ولم أجد الكثير فلا أبالي

ومن علامات حب الدنيا : كثرة الحديث عنها ، فمن أحبّ شيئا أكثر من ذكره ، فكثرة الكلام عن التجارات ، وأحدث الأزياء والموضات ، وأنواع السيارات ، وآخر الصيحات ، وأشهى المأكولات ، وإضاعة المجالس في الإشادة بهذه الأمور : كل هذا يدل على أن القلب مزدحم بدنيا لم تفسح للآخرة موضع قدم.

ومن علامات حب الدنيا : المغالاة في الاهتمام بترفيه النفس ماكلا ومشربا وملبسا ومسكنا ومركبا ، والاهتمام بالكماليات والترفيات اهتماما يملك عليه وقته وعقله ، فيجهد نفسه بشراء الأنيق من اللباس ويرزق مسكنه وينفق الأموال والأوقات في هذا ، ويغرق في التنعيم والترف المنهي عنه في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه لما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن وأوصاه فقال : « إياك والتنعيم ، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين » .

ولذلك حثّ النبي صلى الله عليه وسلم على أخذ الكفاية من الدنيا دون التوسع الذي يشغل عن ذكر الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما يكفيك من جمع المال خادم ومركب في سبيل الله » . بل هدّد النبي صلى الله عليه وسلم المكثرين من الأموال إلا أهل الصدقات فقال : « ويل للمكثرين إلا من قال بالمال هكذا وهكذا وهكذا ، أربع عن يمينه وعن شماله ومن قدّامه ومن ورائه » . وصدق القائل :

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسن ×× إذا لم يكن فيها معاش لظالم

لقد جاع فيها الأنبياء كرامة ×× وقد شبعت فيها بطون البهائم

لا تذموها ولكن

قال يحيى بن معاذ الرازي : « الدنيا خزانة الله فما الذي يُبغض منها ، وكل شيء من حجر أو مدر أو شجر يسبّح الله فيها. قال الله تعالى : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » . وقال الله تعالى : « ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » ، فالمجيب له بالطاعة لا يستحق أن يكون بغيضا في قلوب المؤمنين » .

فليس المطلوب منك سب الدنيا أو الهرب منها بل الواجب عليك : تحقيق الزهد ، والزهد في أبسط صوره ومعانيه أن تحوز الدنيا في يدك لا في قلبك ، وأن تملكها لا أن تملكك ، وأن تضحي بها في سبيل آخرتك لا أن تبيع الآخرة من أجلها ، وأن تطلب الآخرة بالدنيا لا أن تطلب الدنيا بالآخرة ، وأن تفرّغ قلبك مما خلت منه يدك ، ويبشرك عندها بحسن العاقبة الدنيوية والأخروية يحيى بن معاذ فيقول :

« الدنيا أمير من طلبها ، وخادم من تركها ، الدنيا طالبة ومطلوبة ، فمن طلبها رفضته ، ومن رفضها طلبته ، الدنيا قنطرة الآخرة فاعبروها ولا تعمروها ، ليس من العقل بنيان القصور على الجسور ، ومن طلق الدنيا فالآخرة زوجته ، فالدنيا مطلّقة الإكياس ، لا تنقضي عدتها أبدا ، فخل الدنيا ولا تذكرها ، واذكر الآخرة ولا تنسها ، وخذ من الدنيا ما يبلغك الآخرة ، ولا تأخذ من الدنيا ما يمنعك الآخرة » .

وما بعين قلبك على التشبع بالزهد : المقارنة العابرة بين الدنيا والآخرة كمّا وكيفا ، فالدنيا أيام قلائل معدومة في مواجهة خلود لا آخر له ، والدنيا نعيمها متنغص ، إن أضحكت اليوم أبكت غدا ، وإن سرّت تبع سرورها الردى ، وإن حلت فيها النعم جميعا نزلت فيها النقم سريعا ، إن أخصبت أجدبت ، وإن جمعت فرّقت ، وإن ضمت شتّت ، وإن زادت أبادت ، وإن أسفرت أدبرت ، وإن راقت أراقت ، وإن عمّت بنوالها غمّت بوبالها ، وإن جادت بوصالها جاءت بفصالها ، غزيرة الآفات ، كثيرة الحسرات ، قليلة الصفا ، عديمة الوفا ، ومن لم يتبصر في أمرها اليوم عض يديه غدا ، ويكي مع الدمع دما ، بل وحتى من ملك أقصى نعيمها .. انظنونه قد استراح؟! كلا والله ..

أرى من الدنيا لمن هي في يديه ×× عذابا كلما كثرت لديه

تهين لها المكرمين لها بذل ×× وتكرم كل من هانت لديه

وأين كل هذا من الآخرة ونعيم الآخرة ولذة الآخرة وخلود الآخرة؟!

وبعد الإحاطة بالزهد علما تنزل إلى ساحة الجد عملا ، وممارسة يومية ومشقة نفسية ، والنفس على ما عوّدتها نشأت ، وكيف ما ربيتها نمت وترعرت ، ولذا لما قيل هذا المعنى شعرا على لسان أبي ذؤيب الهذلي :

والنفسُ راغبةٌ إذا رغّبتها ×× وإذا تُرَدُّ إلى قليل تقنع

قال الأصمعيّ : « هذا أبدع بيت قالته العرب » .

توازن .. لا تقع!!

واسمع إلى هذا التوازن الرائع الذي نجح في بلوغه الصحابي الجليل الزبير بن العوّام رضي الله عنه ، وتعليمه لنا معنى الزهد الحقيقي ، وذلك في ما رواه عنه عمر بن قيس قال :

« كان لابن الزبير مائة غلام ، يتكلم كل غلام منهم بلغة أخرى ، فكان ابن الزبير يُكلم كل واحد منهم بلغته ، فكنت إذا نظرت إليه في أمر دنياه قلت : هذا رجل لم يُرد الله طرفة عين ، وإذا نظرت إليه في أمر آخرته قلت : هذا رجل لم يُرد الدنيا طرفة عين » .

إنه الاحتراف الإيماني بشقيه الدنيوي والأخروي ، وبلوغ المؤمن أقصى ما يبلغه صاحب دنيا من علوم وفنون ، وما يبلغه صاحب آخره من تقوى واهتداء ، وما أحوجنا اليوم إلى أحفاد ابن الزبير ، نريد المؤمن الثري الذي يضرب بماله في كل تجارة ويربح في كل سوق ، ثم هو مع ذلك الزاهد الورع الذي يسخّر ماله لنصرة الدين ونفع المسلمين .. نريد الناس إذا مدحوا ثريا بكثرة ماله التفتوا إلى تقواه فزادهم إيمانا واقتداء .. نريد أن تكسر احتكار ملايين اللاهين والعابدين للثروات الأمّة .. نريد أن نذكر أن عثمان اشترى الجنّة بماله ، وأن مال أبي بكر هو أكثر ما نفع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك نريد أن نفعل.

نعم .. آن لنا نحن أبناء الإسلام في القرن الحادي والعشرين أن ندرك الزهد الحقيقي بعد أن فهمناه دهرا فقرا ورضا بالقليل وإيثارا للعزلة في الزوايا على المضاربة في الأسواق تاركين الساحة لكل عابث فاجر أو عدو ماكر ، وهو ما فطن إليه علم الزهد في زمانه سفيان الثوري وأدرك تغير أولويات كل زمن فقال : « كان المال فيما مضى يُكره ، فأما اليوم فهو ترس المؤمن »

«لِتُنذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا»

فضل مكة على العالم ..إعجاز إلهي أذهل الدنيا

قال الله تعالى: « لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا » [الشورى: 7].

الاكتشاف العلمي الذي كان يَشغل العلماء، والذي أعلن في يناير (1977م) يقول: إن مكة المكرمة هي مركز اليابسة في العالم، وهذه الحقيقة الجديدة استغرقت سنوات عديدة من البحث العلمي للوصول إليها، واعتمدت على مجموعة من الجداول الرياضية المعقدة، استعان فيها العلماء بالحاسب الآلي.

ويروي العالم المصري الدكتور «حسين كمال الدين» قصة الاكتشاف الغريب، فيذكر أنه بدأ البحث وكان هدفه مختلفًا تمامًا؛ حيث كان يُجري بحثًا؛ ليعد وسيلة تساعد كل شخص في أي مكان من العالم على معرفة وتحديد مكان القبلة؛ لأنه شعر في رحلاته العديدة للخارج أن هذه هي مشكلة كل مسلم عندما يكون في مكان ليست فيه مساجد تحدِّد مكان القبلة، أو يكون في بلاد غريبة، كما يحدث لمئات الآلاف من طلاب البعثات في الخارج.

لذلك فكر الدكتور «حسين كمال الدين» في عمل خريطة جديدة للكرة الأرضية لتحديد اتجاهات القبلة عليها، وبعد أن وضع الخطوط الأولى في البحث التمهيدي لإعداد هذه الخريطة، ورسم عليها القارات الخمس، ظهر له فجأة هذا الاكتشاف الذي أثار دهشته.

فقد وجد العالم المصري أن موقع مكة المكرمة في وسط العالم، وأمسك بيده فرجارًا (برجلاً) وضع طرفه على مدينة مكة، ومرّ بالطرف الآخر على أطراف جميع القارات، فتأكد له أن اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزّعة حول مكة توزيعًا منتظمًا، ووجد مكة - في هذه الحالة - هي مركز الأرض اليابسة، وأعدّ خريطة العالم القديم - قبل اكتشاف أمريكا وأستراليا - وكرّر المحاولة، فإذا به يكتشف أن مكة هي أيضًا مركز الأرض اليابسة، حتى بالنسبة للعالم القديم يوم بدأت الدعوة للإسلام.

ويضيف العالم الدكتور حسين كمال الدين:

لقد بدأت بخطي برسم خريطة تحسب أبعاد كل الأماكن على الأرض عن مدينة مكة، ثم وصلتُ بين خطوط الطول المتساوية؛ لأعرف كيف يكون إسقاط خطوط الطول وخطوط العرض بالنسبة لمدينة مكة، وبعد ذلك رسمت حدود القارات وباقي التفاصيل على هذه الشبكة من الخطوط، واحتاج الأمرُ إلى إجراء عدد من المحاولات والعمليات الرياضية المعقدة بالأستعانة بالحاسب الآلي؛ لتحديد المسافات والانحرافات المطلوبة، وكذلك احتاج الأمر إلى برنامج للحاسب الآلي؛ لرسم خطوط الطول وخطوط العرض لهذا الإسقاط الجديد، فوجدت أن جميع خطوط الطول تنحرف عن مركز الكرة الأرضية حتى خط جرينتش بنسبة معينة، إلا خط طول مكة المكرمة، وجدته متطابقًا معه، ثم اكتشفت أنني أستطيع أن أرسم دائرة يكون مركزها مدينة مكة وحدودها خارج القارات الأرضية الست، ويكون محيط هذه الدائرة يدور مع حدود القارات الخارجية.

مكة إذًا - بتقدير الله - هي قلب الأرض، وهي بعض ما عبّر عنه العلم في اكتشاف العلماء بأنه مركز التجمع الإشعاعي للتجاذب المغناطيسي، يوائمه ظاهرة عجيبة قد تذوّقها كل من زار مكة حاجًا أو معتمرًا بقلب منيب، فهو يحس أنه ينجذب فطريًا إلى كل ما فيها: أرضها، وجبالها، وكل رُكن فيها، حتى ليكاد يذوب في كيانها مندمجًا بقلبه وقالبه، وهذا إحساس مستمر منذ بدء الوجود الأرضي.

والأرض شأنها شأن أيّ كوكب آخر، تتبادل مع الكواكب والنجوم قوة جذب تصدر من باطنها، وهذا الباطن يتركز في مركزها، ويصدر منه ما يمكن أن نسميه إشعاعا، ونقطة الالتقاء الباطنية هي التي وصل إليها عالم أمريكي في علم الطوبوغرافيا، بتحقيق وجودها وموقعها جغرافيًا، وهو غير مدفوع لذلك بعقيدة دينية، فقد قام في معمله بنشاط كبير، وواصلا ليله بنهاره وأمامه خرائط الأرض وغيرها من آلات وأدوات، فإذا به يكتشف - عن غير قصد - أن مركز تلاقي الإشعاعات الكونية هو مكة

ومن هنا تظهر الحكمة في الحديث الشريف المبنية على قول الله تعالى: «وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيًا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير» [الشورى: 7]، ومن ثَمّ يمكن التعرّف على الحكمة الإلهية في اختيار مكة بالذات ليكون فيها بيت الله الحرام، واصطفائها لتكون نواة لنشر رسالة الإسلام للعالم كله[1]. فمن ذا الذي أبلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك؟!